قصّة قصيرة

رسالة الى وزير الصحة

عبدو محمد

السيّد وزير الصحّة

تحيّة وبعد،

أكتب اليك وأنا بكامل قواي العقلية طالباً العدالة والانتصاف لي من الأطباء الذين حكموا عليّ بغير ذلك.

لقد قصصت عليهم قصّتي بكل صدق وأمانة، فنظروا إلى بعضهم مستغربين وقلبوا شفاههم مستنكرين، ثم انصرفوا وتركوني بين جدران هذا المستشفى.

سيادة الوزير

بدأت حكايتي منذ أشهر قليلة عندما رأيته أول ما رأيته وأنا أطلّ من النافذة يذرع الرصيف جيئة وذهاباً، ورأيته ثانية عندما خرجت قاصداً مكان عملي.

لم أستغرب وجوده قرب بيتي فالكثيرون ينتظرون (الباص) في موقفه هنا، ولكني استغربت شكله اللافت للنظر.

جاء (الباص) المزدحم دائماً، فحشرت نفسي بين الأجساد المتلاصقة التي تشكّل خليطاً غريباً فيه من كل لون وشكل ورائحة، ولمحته من بين الحشد واقفاً على الرصيف، عندما انطلقنا فقلت «لعلّ الازدحام أكثر مما يطيق أو عساه ينتظر أحداً»، ولكني فوجئت به ينزل من الباص في المكان الذي أنزل فيه، ثم يغمغم لفتى كان معه بكلمات فيذهب الفتى باتجاه، أما هو فيمضي باتجاه آخر.

كان شكله غريباً، قامة مربوعة هي إلى العرض أقرب منها إلى الطول، ووجه مصفرّ جامد ممسوح المعالم كوجه تمثال منصوب في العراء منذ آلاف السنين، وكان يتحرّك بآلية عجيبة، لم تكن حركاته تشبه حركات الأدميين إلّا من حيث الظاهر.

وعندما رأيته مرّة أخرى، وفي اليوم نفسه، يمرّ من أمام غرفتي حيث أعمل، موزّعاً نظرات بلهاء أوجست في نفسي خيفة وأنا أتذكّر قول صديق منذ أيام «انتبه لنفسك وصحتك فعزرائيل ليس ببعيد وقد تكون تحت مراقبته»، كما تذكّرت قول جدّتي طيّب الله ثراها عندم كانت تروي لنا في بعض حكاياتها أن عزرائيل أو ملك الموت عليه السلام ينزل أحياناً إلى الأرض بشكل آدمي فيقبض روح من انتهى أجله.

استرخيت على مقعدي ذاهلاً وسرحت أفكاري بعيداً خلف الحكايات الكثيرة التي سمعتها عن عزرائيل وكيف يقبض الأرواح، وبدأت الوساوس تراودني والهواجس تنهال عليّ، ورحت أقتنع رويداً رويداً بأن هذا الغريب الذي رأيته اليوم مرّات ما هو إلّا عزرائيل وأنه يلاحقني ليقبض روحي.

في البيت كنت حزيناً مهموماً، لم أحكِ لزوجي هواجسي وظنوني ولم تسألني هي، فنحن شبه متخاصمين منذ شهور لأسباب مادية ولأنها كثيراً ما تراني مهموماً، فمنغصات الحياة كثيرة هذه الأيام، ولحبّي لها ولأولادي كتبت في ورقة كل ما يمكن أن يرتّب لها الأمور إذا ما متّ، ثم أويت إلى فراشي والقلق قد تسرّب إلى داخل عظامي.

قضيت ليلة مضنية وأنا أتقلّب على فراشي الذي كان مريحاً، لم يغمض لي جفن، ورأيت بوضوح كيف يتراجع الظلام وينسحب بهدوء وكيف يقبل الصباح بنوره بهدوء أيضاً.

كنت مسهداً عندما نهضت من الفراش، وبتثاقل ارتديت ملابسي لأذهب إلى عملي، وكالعادة أطللت من النافذة على موقف الباص، ففوجئت به واقفاً هناك يوزّع نظراته الباردة على نوافذ البيوت وفيما حوله.

تهاويت على المقعد الأقرب. «إنه هو بالتأكّد» خاطبت نفسي وأضفت «لقد حان أجلي وجاءت منيّتي، اللهم أسألك اللطف والرحمة».

رفعت سمّاعة الهاتف وتحدّثت مع رئيسي بالعمل، وهو يقدّر طاعتي له واتقاني لعملي، طالباً استراحة مدّعياً أن صحتي ليست

بخير، فوافق وهو يضيف ضاحكاً «لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا».

أفزعتني مزحته وقلت إن القدر أنطقه بها ليعلمني بقرب نهايتي.

أمضيت أياماً ثلاثة بلياليها جالساً في البيت قلقاً مهموماً أنتظر الموت بين لحظة وأخرى ـ آه كم هو صعب ومرّ أن تجلس وتنتظر الموت ـ استرجعت شريط حياتي بكل تفاصيلها فلم أجد سبباً واحداً ولو صغيراً لزيارة عزرائيل هذه.

في اليوم الرابع كان الانتظار قد هدّني بثقله الذي لا يطاق. جررت نفسي بصعوبة إلى النافذة، أطللت منها بخوف شديد وفرحت إذ لم أجده.

أمام النافذة وقفت طويلاً أتفحّص المكان، وكانت فرحتي تزداد مع كل دقيقة تمرّ ولا يظهر فيها، وببطء بدأت نسمات منعشة من الاطمئنان تتسرّب إلى نفسي وعقلي.

كان الوقت عصراً عندما لبست ثيابي بسرعة واندفعت إلى الخارج طارداً أفكاري السوداء وهواجسي المقلقة «لم تكن إلاّ مصادفات رأيت فيها شخصاً معيّناً فحسبته عزرائيل، لماذا يأتيني عزرائيل وأنا ما زلت شاباً وأداري صحتي بشكل جيّد؟».

هكذا كنت أحدّث نفسي وأنا محشور بين الناس في الباص، ويبدو أني كنت أحدّث نفسي بصوت عال لأن من حولي من الركّاب كانوا ينظرون إليّ نظرات مريبة.

في المقهى الذي أستريح فيه أحياناً جلست، وبلذّة لامتناهية، لذّة حياة جديدة وهبتها، رحت أرشف فنجان القهوة وأمتصّ دخان (سيكارتي) بشراهة ثم أنفثه بقوّة وكأني أنفث هموم الأيام الماضية الثقيلة.

لم تطل فرحتي كثيراً، فقبل أن أنتهي من شرب فنجان القهوة، رأيته يدخل المقهى، ويدور بين المقاعد ليجلس غير بعيد عني.

تدفّقت عليّ كل الهموم والهواجس والأفكار التي كنت قد أبعدتها دفعة واحدة، وغمرني الحزن والخوف والاضطراب «إنه عزرائيل بالتأكيد، سيقبض روحي، لا شك بذلك، ليته يعجّل، لقد تعبت من الانتظار».

هكذا كنت أحدّث نفسي وأنا أختلس النظر إليه، وفجأة خطر لي أن أتفحّصه فربما لم يكن إلاّ رجلاً مثلنا، قمت من مكاني واقتربت منه وأنا أمعن النظر فيه، رأيت في جيبه علبة دخان «هل يعقل أن يكون عزرائيل ويدخّن». أراحني هذا الخاطر قليلاً «ربما كان ذلك للتمويه». مرّ هذا الخاطر أيضاً، «لأجرّب أن أدعوه إلى فنجان قهوة، فلن يقبل الطلب إذا كان عزرائيل».

قبل دعوتي بسهولة فارتحت قليلاً، ولكنه عندما راح يرتشف القهوة بصوت عال ثقيل على السمع ويدخّن بطريقة منفرة إذ كان يخرج الدخّان من منخريه بقوة عجيبة بينما كان فمه مغلقاً والسيكارة تتناقص فيه وكأنها فريسة في فم ثعبان ضخم وهو يبتلعها ببطء، أخافني وزاد تصوّري من خوفي وهمّي فانسحبت هارباً لا أكاد أتبيّن طريقي.

وراح خوفي يكبر مع الأيام التي كانت تمرّ، وأراه فيها. كنت أراه كل يوم في الصباح عند العودة من العمل في الشارع وفي المقهى أيضاً.

كان سبباً في انقلاب حياتي من هدوء إلى اضطراب، صحيح أني لم أكن سعيداً مرتاح البال، ولكنه زاد في همّي وتعاستي، فرحت أعامل زوجي بعصبية ونزق، وأضرب أطفالي لأتفه الأسباب، أطفالي الذين لم أكن ألمسهم إلاّ بمحبّة، وزملائي الذين كانوا قريبين مني ابتعدوا عني وتحاشوني ربما لفظاظتي الجديدة أو ربما لأنهم عرفوا أن عزرائيل يلاحقني، وراحوا يتهامسون بأنهم كثيراً ما رأوني أتحدّث مع نفسي أو مع شخص غير موجود.

ضقت ذرعاً بحالتي هذه، لم أعد أحتمل الخوف اللانهائي، لم أعد أطيق انتظار الموت جالساً كبعير أجرب ابتعد عنه قطيعه خوف العدوى، دمّرتني آلاف التساؤلات الحذرة الحنونة التي كنت أقرأها في عيون صغاري، هدّني التفكير بأني سأموت بلا سبب، مع أني أداري صحتي ولم أمرض يوماً.

لكل هذه الأسباب وآلاف المشاعر المشابهة غيرها، قمت إليه عندما وجدته جالساً في المقهى يدخّن سيكارته بطريقته المنفرة، وبهدوء شديد، خلعت حذائي وضربته به على وجهه وأنا أقول «إن كنت عزرائيل فاقبض روحي ولأكن أول آدمي يرفع يده ويضربك، وإن لم تكن فابتعد عني وأرحني من خلقتك الكريهة هذه».

قبل أن يفيق من ذهوله كانت ضربات عديدة قد أصابت وجهه ورأسه، ومن بين الكثيرين الذين أمسكوا بي، رأيته يبتعد وهو يقول: «مجنون، مجنون». والعجيب أن اللجنة الطبية التي فحصتني بعد ذلك صدّقت كلمته الوحيدة تلك واستغربت كل ما حكيته لها.

ملاحظة:

يا سيادة الوزير

لولا اشتياقي لرؤية أهلي وأطفالي وخوفي من أن يقول عنهم الناس إن أباهم كان مجنوناً ما كنت كتبت إليك لسببين:

الأول: أنا مرتاح هنا من الهموم اليومية الكثيرة والمضنية التي كنت أحتملها مثل الوقوف أمام الفرن والمؤسسة وفي موقف الباص، لا أشعر بالقهر والاستغلال اللذين كنت أشعر بهما أمام كل بائع أشتري منه حاجة من حاجيات البيت والأولاد، المراجعات القاسية

والمقرفة في العمل من الأقوياء المدعومين أو من السماسرة الملاعين لا وجود لها هنا، تخلّصت من الجبن والخوف اللذين كنت أشعر بهما أمام رئيسي والشرطي بالاضافة إلى أني أتكلّم هنا بحرية مطلقة.

الثاني: أنا محاط هنا بأناس الكثير منهم ليسوا بأسوأ من الكثير ممن هم في الخارج.

تتمّة:

جاء في التقرير الذي رفعته اللجنة الطبية عن حالة المواطن ما يلي:

بعد الفحص تبيّن أنه يعاني من اضطراب نفسي وعقلي شديد، وهو يصرّ على أنه قد تحدّى عزرائيل، بل وضربه لأنه ظلّ يلاحقه فترة طويلة بينما لم يكن المضروب غير رجل بائس يسكن في حيّه وقد أسقط حقّه في إقامة دعوى ضده تقديراً لحالته. يبقى في المستشفى قيد المعالجة.

دمشق

صدر حديثا

يمكن على الدوام التعبير عن مأساة حياة باستعارة فكرة الثقل. فيُقال إن عبئاً سقط على كواهلنا. ويُحمل هذا العبء ويُحتمل أو لا يُحتمل، ويُغالَب فينهزم المرء أو ينتصر. ولكنْ ما الذي حدث بالضبط لـ «سابينا»؟ لا شيء. لقد هجرت رجلاً لأنها كانت تريد أن تهجره. أيكون قد لاحقها بعد ذلك؟ هل سعى إلى الانتقام؟ لا. فمأساتها لم تكن مأساة الثقل وإنما كانت مأساة الخفّة. ولم يكن ما انهال عليها عبئاً، بل كان خِفّة الكائن التي لا تُحتَمَل.